الشاعرة صافو وفقدان دواوينها

للاب بطرس بوسّار اليسوعي احد اساتذة كلية القديس يوسف

ورد في عدد تشرين الاوّل الاخير من مجلّة الحريّة البغداديّة لصاحبها عبد الجليل افندي رزق الله اوفى فصل بقلم الاستاذ عبد المسيح وزير ذكر فيه الشاعرة اليونانيّة صافو وروى اخبارها ومدح شعرها وتأسّف على ما فُقد من قصائدها فقال سامحهُ الله (ص ٢١٥) :

« ولنا من اخبار القرون الوسطى انّ الاكليروس في تلك العصور المظلمة اوقدوا نار الغيرة الدينيّة المنطوية على التعصّب الاعمى في صدور الناس فاخذوا يتلفون دواوين صافو على صورة منتظمة . وقد روى العلّامة سكاليجر الايطالي انّ مؤلفات صافو وغيرها من شعراء الامم الوثنيّة كانت تُجمع في عهد البابا غريغوريوس السابع وتُحرق في رومة والقسطنطينية فتبيت تُعلّل تطرب لها قلوب اولئك الجَهَلة المتعصّبين حتى قال العلّامة سيوندز في هذا الشأن : انّ العالم لم يتكبّد خسارة ادبيّة اعظم من خسارتهِ في إتلاف قصائد صافو »

هذا ما كتبهُ في حقّ الاكليروس عموماً وفي حقّ احد كبار الاحبار الرومانيين خصوصاً عبد المسيح افندي وزير . واذ يخالف كلامهُ الحقيقة كلّ الخلاف فلا يسعنا ان نسكت عنهُ صيانةً لحرمة الحقّ ولشرف رؤساء الكنيسة الكاثوليكية . ونحن لا نعرف مبلغ الكاتب من العلم وهذه اوّل مرّة نقرأ لهُ مقالة في احدى المجلّات كتبها في وصف امرأة يونانيّة عاشت قبل الفين وخمسمائة سنة فبلغتنا اخبارها مضطربة متناقضة فأحبّ ان يحيي ذكرها فنقل على ما نظنّ مقالتهُ عن بعض المحدثين من المعادين للدين الكاثوليكي دون ان يتثبّت صحتها . فها نحن نعود الى ذكر تلك الشاعرة ونبيّن ما يرويهِ العلماء الاثبات عن اخبارها وعن شعرها وعن سبب فقدانهِ وتزكّي الاكليروس والبابا القديس غريغوريوس السابع من التهمة الموجّهة اليهم

من هي صافو ؟

صافو ويقال في اليونانيّة صابفو Σαπφώ هي شاعرة شهيرة ازهرت في القرن السادس قبل المسيح . وقد أدّت شهرتها في بلاد اليونان الى ان نسب اليها العموم

الشاعرة صافو في اواخر عمرها

اخبارًا متناقضة واساطير متباينة هي الى الخرافات اقرب منها الى الحقيقة. وغاية ما يتفق عليهِ العلماء في عهدنا انها وُلدت في جزيرة لسبوس وهي ميتيلين الحديثة (مدلي الاتراك) ونشأت فيها. وكان ابوها اسمهُ سكامَندرونيم فاختصروه بأسم سكامون (Σκάμων) من اعيان وطنهِ ولها اخوان خراكسوس ولاريكس مات والدها وعمرها ستّ سنين وكانت أمها تُدعى كلائيس (Κλεΐς) ورد اسمها في شعرها. واخوها لاريكس كان ساقياً في ولائم مجلس بلدهِ (le prytané) لا كما زعم كاتب الحرية لحاكم جزيرة متيلين وكانت هذه الوظيفة تُعتبر كوظيفة شريفة. واما اخوها خراكسوس

فأحبَّ فتاةً تدعى رودوبيس انتكَّما من الاسر واتفق عليها كثيراً من ماله ليتزوَّجها حتى ونَّبته اختهُ صافو على تبذيره ماله عليها. وممَّا جاء في كتابة قديمة تُعرف برخامة باروس انَّ صافو نُفيت مدَّةً الى جزيرة صقلية ولا يُعلَم سبب نفيها ثمَّ عادت الى وطنها. ولا يُعرَف من امر زواجها إلَّا ما ذكرتهُ في شعرها عن ابنتها كلائيس دعتها بأسم امِّها. ويؤخذ من شعرها ايضاً انَّها عمَّرت طويلًا ويُجهل عام وفاتها. وانَّما يجعل المحدثون مولدها نحو السنة ٦٨٠ قبل المسيح ووفاتها نحو سنة ٥٥٠ فتكون بلغت السبعين من عمرها ..

هذا مجمل ما تحقَّقهُ ارباب النقد من احوال صافو. أمَّا ما شاع بعدها عن عشقها وعن انتحارها لخذلان عاشقها فقد نُسبا اليها زوراً اخترعهما شعراء الرواسح في رواياتهم الهزليَّة جزافاً دون سند

٢ الشاعرة

انَّ شهرة صافو بين اليونان انَّما كان سببُها قريحتها العجيبة في نظم الشعر اليوناني تضمَّنهُ ارقّ المعاني وتكسوهُ بألطف التعابير وافصح الالفاظ. وقد بلغ مجموع شعرها تسعة دواوين من الشعر الغنائي (lyrique) يضاف اليها عدَّة قصائد في معاني مختلفة كالرثاء والهجو وكان شعرها باحدى اللهجات الشائعة بين اليونان تعرف باللهجة الايوليَّة (éolien)

وكانت صافو لغرامها بالشعر والتغني بها جمعت عدَّة فتيات من وطنها متيلين ونظمت منهنَّ جوقةً علَّمتهنَّ فنون الغناء وألَّفت لهنَّ الاغاني المختلفة وضعت لها وزناً يوافقها رقَّةً نُسب اليها قد دُعي باسم مخترعته « الشعر الصافيّ » (vers saphique) فكانت هي تتولَّى تدبير تلك الجوقة التي كان اهل وطنها يدعونها الى كلّ حفلاتهم لتشنف مسامع الحضور باصواتها الشجيَّة واغانيها الطربة وكانت الادوات الموسيقيَّة ترافق اصوات الفتيات. وكانت صافو ماهرة بنقرها ولاسيما البربط اليوناني

أمَّا مواضيع شعر صافو فمدارها غالباً على الحبّ الجنسيّ والغرام إلَّا انها لم تخرق حرمة الآداب وتصون نفسها عن الخلاعة. وهذا ما يشهد عليهِ ما بقي من شعرها الى يومنا واشار اليهِ القدماء

٣ بقايا شعر صافو وسبب فقدانه

قلنا انَّ صافو تركت عدَّة مجلَّدات من شعرها النفيس ما يدلُّ على غزارة مادَّتها وجودة قريحتها. وقد عُرفت هذه التآليف بعدها فشاعت بين اليونان ولم يجهلها الشعراء اللاتين الذين نبغوا في عهد اوغسطوس قيصر والقرون الاولى للميلاد. وكلُّهم على اختلاف نزعاتهم يطرئون شعر صافو ويقرُّون لها بالتفوُّق على سواها في الشعر الغنائي اليوناني ولم يصبر إلَّا القليل منها على آفات الدهر

ولكن كيف يا تُرى فُقدت تلك الكنوز الادبيَّة الثمينة أثبتت الى القرون الوسطى سالمةً او يصحُّ القول بانها فُقدت بذنب الاكليروس او انها حُرقت بامر الحبر الاعظم البابا القديس غريغوريوس السابع في القرن الحادي عشر او في زمانه كما توَّه به كاتب مقالة الحريَّة ؟

هذا سؤال يلقيه اصحاب البحث والتنقيب وحتى اليوم يقرُّون بجهلهم لاسباب فقدان تلك الآثار الادبية آسفين على ضياعها . وليس سؤالهم مقصورًا على دواوين صافو بل يعمُّ كثيرًا من تآليف اليونان. كيف ضاعت روايات اسخيلوس السترن ؟ وروايات صوفقلس المئة؟ وتآليف غيرها قديمة من عهد اليونان والرومان؟ وكثير منها لا بأس منها بينها التواريخ والآداب والفلسفة والخطب الاجتماعيَّة وكم غيرها وكم ؟ ايجوز ان يُتَّهم الاكليروس والقديس غريغوريوس باتلافها ؟

بل كم فُقد من اعمال الآباء القديسين والكتبة الكنسيين التي لم نعرف اليوم غير اسمائها وهي اقرب الى زماننا من اعمال اليونان والرومان. أفيستطيع عبد المسيح وزير ان ينسب ايضاً فقدانها الى الاكليروس والى القديس غريغوريوس السابع؟

ثمَّ أيجهل احد أنَّ ما وصل الى يدنا اليوم من اعمال اليونان والرومان لم نتمتَّع به إلَّا بفضل الاكليروس القانوني والرهبان كالبندكتيين وغيرهم الذين جمعوا ما امكنهم منها وعدَّدوا في اديرتهم نُسَخها فاصبحت منازلهم مستودعات لتلك الآثار الجليلة

فان قيل انَّ العرب حفظوا للغرب تلك الكنوز فالفضل في نجاتها من آفات الزمان عائد اليهم. اجبنا انَّ غاية ما بلغ لاوربَّة على يد العرب لا يتجاوز كتب

اليونان الفلسفيَّة والطبيَّة وبعض كتب الرياضيَّات والطبيعيَّات والهيئة والجغرافية. أمَّا كتب الآداب واللسان والخطب والشعر فلم تنلْ منها اوربَّة شيئاً بواسطة العرب. وانَّما حفظهُ الاكليروس ولاسيما الرهبان بسعيهم وتفانيهم في خدمة الآداب. أفيقبل العقل ان يقال انَّ غيرهم من ارباب الكنيسة عاكسرهم فملَّا وأتلفوا مآثر الاقدمين. وزد على ذلك ان تسعة اعشار المرتبين لاعمال الفلاسفة القدماء وتآليفهم العلميَّة انَّما كانوا من نصارى الروم والسريان يُدعَون عرباً بالمجاز لا بالحقيقة وعنهم اخذ العرب المسلمون كابن سينا وابن رشد والفارابيّ وغيرهم. فليراجع كتاب الفهرست (ص ٢٤٤) حيث ذكر ابن النديم اسماء نقلة كتب اليونان فانَّ معظمهم نصارى

فهذا جوابٌ عمومي يكفي لإفحام صاحب مقالة صافو في الحريَّة فلا يعود يرمي الكلام على عواهنهِ دون تروٍّ. ولكن دَعْنا نختص بالنظر القديس غريغوريوس السابع لنرى ايوجد شاهد صادق على نسبة هذه التهمة اليهِ

٤ تبرير البابا القديس غريغوريوس السابع من اتلاف شعر صافو

١ واوَّل ما نطلبهُ من كاتب الحريَّة أن يمكنك ان تثبت بقاء دواوين صافو الى عهد القديس غريغوريوس السابع اعني الى القرن الحادي عشر للميلاد. أفنسيتَ يا صاح انَّ أمم البرابرة كانت انقضَّت على انحاء اوربَّة المتمدنة فسلبوا ونهبوا وحرقوا وقتلوا وتتابعوا جيلًا بعد جيل مدَّة ستة اجيال فكيف لا تنسب اليهم فقدان تلك الكنوز العلميَّة والادبية؟ أفهذا من العدل والانصاف فتنسى المجرمين وتوسم الابرار؟

٢ ولكن هَبْ انَّ دواوين صافو نجت من ايدي الشعوب البرابرة التي زحفت على اوربَّة من هونيين وغوطيين وجرمانيين وسكسونيين فماذا يا تُرى كان الداعي الذي دفع غريغوريوس السابع الى ملاشاة اعمال صافو؟ أليسَ انَّ دواوينها كانت منتشرة بين العموم فتُفسد الآداب بما في اوصافها من الغرام؟ فنقول لجناب الكاتب انَّ دواوين صافو يونانيَّة اللهجة وفي عهد القديس غريغوريوس السابع كانت اللغة اليونانيَّة نسياً منسيًّا ليس من يفهمها او من يدرسها حتى بين أدباء الروم. فما كان يُخشى منها ادنى ضرر للآداب. وبقيت تلك اللغة مجهولةً الى القرن الخامس عشر فتنكَّى العلماء

كيتزرك وغيره من خولها وتقاضي الادباء عن درسها

٣ وكيف نجت من حريق البابا غريغوريوس المزعوم دواوين أخرى لاتينية اللهجة معروفة بما تتضمّنهُ من العشقيّات والمجون كارثيديوس وكاتولس وهوراسيوس أفما كان الاحرى بالقديس غريغوريوس ان يتلفها قبل سواها لشيوع اللغة اللاتينية . فان لم يفعل فذلك دليل على انهُ لم يمسّ دواوين صافو بأذى ولاسيما انّ شعرها وان تضمّن اوصافاً غراميّة فانّهُ خالٍ من المجون والخلاعة كما نرى في شعراء اللاتين

٤ وغاية ما نعرفهُ عن القديس غريغوريوس السابع انهُ جاهد جهاد الابطال مدّة اعوام رئاستهِ على الكنيسة (١٠٧٣—١٠٨٥) ليحرّر الكنيسة من ربقة استعبادها بابطال زواج الكهنة والنساء تقليد الملوك للاساقفة السلطة الدينيّة بمنحهم شاراتها كالعصاة الراعويّة والخاتم الاسقفي . فقامت قيامة المعاكسين فكان الحبر الاعظم في ذهاب وايابٍ لا يكاد يجد راحة في جهادهِ مع الملك هنريكوس الرابع فهيهات ان يكون تحلّى لأمر المخطوطات اليونانيّة ولدواوين صافو . ومن ثمّ نسبة ذلك اليهِ أبعد من ان يصدّقها احد

٥ امّا ان قيل ان سكاليجر وهو من كبار ادباء القرن السادس عشر هو الذي روى ما فعلهُ البابا غريغوريوس السابع . فنجيب على ذلك انّنا لا ننكر ما كان لسكاليجر من العلم والشهرة إلّا انّنا كنّا وَدِدْنا قبل كلّ لو أتانا عبد المسيح افندي بنصّ سكاليجر بحرفهِ الواحد اذ لم نطّلع عليهِ سابقاً . ثمّ ولو افترضنا انهُ قال ذلك فما نَصيبُ قولهِ من الصحة وعلى اي كاتب استند ليروي هذا الخبر وبينهُ وبين زمن البابا غريغوريوس خمسمائة سنة . بل نجد في منتقدي تآليف سكاليجر العصريين مَن ينسبهُ الى التهوّس والمبالغة . فهذا النقّاد الكبير في عصرنا اليهودي سليمان رينياخ المعروف بتآليفهِ العديدة وبمعرفتهِ لآثار اليونان فانهُ يدعو سكاليجر في كتابهِ الدستور اللغوي « كاتباً زائد التعشّف والغرابة »(١ (un auteur plein d'extravagances) فان كان امرهُ كذلك أفيجوز ان نرضى بحكمهِ دون ان يدعمهُ بالادلّة القاطعة؟

٦ ولنا شواهد اصدق واقرب الينا من شهادة سكاليجر فانّ عدّة مؤرخين من كاثوليك وبروتستانت رووا سيرة الحبر الاعظم غريغوريوس السابع مستندين الى

1) S. Reinach: Manuel Philologique I, p. 7

اوثق الاسانيد التي استخرجوها من سجلات المكاتب الدولية الكبرى ومنهم فليش (A. Fliche) فانهم لا يلتحون البتة الى ما نقلهُ زورًا كاتب الحرية وبين هؤلاء الكتبة رجال من اعداء الكنيسة الكاثوليكية كالمشيخ الوتاروس فواغت (Voigt) فانهُ سكت عن تلك التهمة الباطلة. ومنهم الذين كتبوا تاريخ الآداب اليونانية وذكروا صافو وشعرها كاوتفريد موآر (Ottfried Muller) وايغر (Egger) وكروازه (Croiset) فان لا احد منهم يذكر البابا غريغوريوس السابع بسوء في حق صافو

٧ وغاية ما وجدنا في تاريخ الاداب الدرسية للاستاذ سندي (Sandy) الذي عنوانهُ (A History of classical scholarship, p. 498) ما تعريبهُ : « انَّ اقبال العموم على درس التآليف المدرسية القديمة كان ضعُف في القرن الحادي عشر وانَّ البابا غريغوريوس السابع لانشغالهِ في مناهضة هنريكس الرابع لم يجرّد فكرهُ للتآليف الادبية القديمة » . فاعجبي ان كلاماً مثل هذا لا يشعر بان إمام الاحبار اتلف او حرق تآليف صافو او غيرها وانما لم يتفرَّغ فقط للاهتمام بها كأسلافهِ ونحن نسأم بذلك لعبد المسيح افندي

٨ ومما يزيد كلام عبد المسيح وزير غرابةً نسبتهُ الى الحبر الاعظم حريق التآليف الادبية القديمة في القسطنطينية كما في رومية . وهذا من التطرّف في مكان . فكلّ يعرف انَّ سلطة الحبر الاعظم في القرن الحادي عشر كانت ضعفت جدًّا بين الروم وليس كاتب واحد رومي او غيرهُ قال مثل هذا القول ولا نعلم أذهَبَ اليهِ سكاليجر وما لا ريب فيهِ انهُ كذبٌ محضٌ لا نصيب لهُ من الصحة ومجرّد القول بهِ يكفي لنبذهِ نبذ النواة

وفي ما سبق كفاية لتبرير القديس غريغوريوس السابع مما اتُّهم بهِ واملُنا من كاتب مقالة مجلة الحرية ان يُصلح كلامهُ صيانة لشرفهِ ورعايةً لعرض احد احبار رومية الاجلّاء الذي بفضلهِ عادت الكنيسة الى استقلالها من السلطة المدنية والى بهائها السابق